نادیٔ الشیاطین

أطبق على الفضاء العريض ليل عريض ، تكاثفت ظلماته وركب بعضها بعضاً ، حتى لتوشك الأيدى أن تلمسها ، وحتى لتعجز أضواء النجوم أن تنفذ من بعضها ، وحتى لو رآها الناس لأنكروها ، ولقال بعضهم لبعض : هذا آخر ليل تعرفه الأرض ، أو هذا هو الليل الأبدىّ الذى لن تخرج الأرض منه ولن يمسها بعده الضوء . ولكن الناس لم يروا مثل هذا الليل العميق الكثيف شيئاً ، وإنما رأوا ليلهم كما تعوّدوا أن يروه ، يترقرق فيه ضوء القمر ، وتتألق فيه أشعة النجوم . ثم كأن عمق هذا الليل وكثافته لم يكفيا ليحجبا السماء عن ذلك الفضاء العريض ، فإذا قطع من السحاب تُقبل من كل صوب فى زمجرة وزئير حتى تلتقى وتنعقد ، فتضيف عمقاً إلى عمق ، وكثافة إلى كثافة ، وكأن الأسباب قد قطعتْ فى هذا الرّدَح من الزمان بين الأرض والسماء .

فى هذا الفضاء العريض القاتم الذى لا تستطيع لغة الناس أن تصف سعته وظلمته ، جلس إبليس لأعوانه ومشيريه من الشياطين . وما هى إلا أن أقبلوا إليه خفافاً لطافاً ، كأنما كان يحملهم نسيم من نار مظلمة . فلما انتهوا إليه وأطافوا به قال لهم فى صوت خفىّ : « لقد علمتم ما ألمّ بهذه الأرض من خطب ، وما نزل بأهلها من حدث ، وما كان من تحوّلهم عما ألفنا منهم منذ قرون ، فأشيروا » .

قالوا : « تكبرت أن نشير عليك ، وإنما منك الأمر وعلينا الطاعة » .

قال مستخذياً : « ما غمضتْ علىّ الأمور قط كما غمضتْ

علىّ الآن . وما عُميتْ علىّ الأنباء قط كما عُميتْ علىّ الآن . وما عوّدتكم أن أسألكم عن شيء أو أستشيركم فى شيء . ولولا أن الغيب قد حجبَ عنى لأول مرة ما دعوتكم ولا استشرتكم » .

قالوا : « تكبّرت ! لئن حجبَ الغيبُ عنك لهو أحرى أن يحجبَ عنا . وإنا منذ الليلة لفى ظلمة دامسة لم نعهد مثلها قط ، وإنا لنتحدث فما تكاد أصواتنا تبلغنا . ولولا أنك كبير فى نفوسنا لأشفقنا ألا تبلغك أصواتنا » .

قال : « لا تراعوا ولا يخرجكم الفزع عن أطوارکم ! فإن أصواتكم تبلغنى كما يبلغكم صوتى . وما هذه الظلمة الدامسة إلا من عملى وكيدى . فقد ألقىَ فى رُوعى أن من الخطر كل الخطر أن نتشاور أو ندير أمرنا بيننا دون أن نقيم بيننا وبين السماء حجباً كثافاً » .

قالوا : « تكبرت أن يرَدّ عليك رأى أو يخالف لك عن أمر ! فقل نستمع ، وادعُ نستجب ، ومرْ ننفذْ إلى طاعتك أسرع مما تنفذ السهام إلى رَميّها » .

قال : « على رسلكم حتى يثوب إلىّ الرسل الذين بثثتهم فى أقطار الأرض ، وبعثتهم فى أجواز السماء ليعلموا لى علم هذا الخطب . فما أرى إلا أن حادثاً عظيماً محدق بالأرض وسكانها » . وما أتم إبليس هذه الجملة من حديثه حتى جعل شرر دقيق سريع ينفذ من هذه الظلمات المتكاثفة فى قوة ، ويتبع بعضه بعضاً فى عنف وازدحام ، يأتى من كل وجه ، ويقبل من كل صوب ، حتى ريع الشياطين ، وخيل إليهم أن السماء تمطرهم ناراً .

قال إبليس : « ما أرى إلا أنكم قد فقدتم صوابكم ، وفارقتم أحلامكم ، وجعلتم ترتاعون لغير رَوْع . ما إشفاقكم من هذا الشرر وإنكم لترون فيه صور أنفسكم ! انظروا ! هؤلاء الرسل يقبلون من أقطار الأرض ، ويهبطون من أجواز السماء ، يحملون إلينا أخبار الأرض وأنباء السماء » .

وما هى إلا لحظة حتى عادت الظلمات إلى كثافها ، وانعقدت كهيئتها قبل أن يقبل هذا الوابل من الشرر ، كأنما كانت قطعاً من أدَم أسود صفيق شُقت لهذا الشرر حتى نفذ منها ، ثم انعقدت عليه تحوطه وتحميه . وما هى إلا أن يتمثل هذا الشرر أشخاصاً خفافاً لطافاً لها أصوات خفاف لطاف كصوت إبليس ومن كان حوله من الشياطين . وإذا أحدها يتقدّم واجفاً خائفاً ، حتى إذا كان من إبليس غير بعيد انحنى يظهر الطاعة والإكبار ، وقال فى صوت هامس كأنه هفيف النسيم : « تكبرت ! قد أفزعنا ورُوّعنا ورُمينا بالشُّهب ، ورُددنا عن مقاعدنا من السماء ، فما لنا إلى استراق السمع من سبيل » .

قال إبليس : « تعستَ ! لم تنبئنا بشىء لا نعرفه . فأين الرسل الذين أرسلتهم يستقصون الأنباء ؟ » .

قال الشخص الماثل : « تكبرتَ ، إنما أتكلم عنهم ، أنطق بلسانهم . لقد انتشرنا فى أجواز الجو من كل وُجه ، وارتفعنا نحتال فى ذلك ما وسعتنا الحيلة ، وخلى بيننا وبين الارتفاع حتى غرتنا الأمانى ، وخيل إلينا أنه قد رُدّ الشر عنا . وما نكاد نبلغ مقاعدنا

حتى تصبّ السماء علينا وابلا من شُهب مهلكة . وما أدرى كيف خلصنا إليك ؛ فقد احترق أكثرنا قبل أن يبلغ الأرض . وما أرى إلا أن السماء قد أبقت علينا لتنفذ إليك فنبلغك ما ألمّ بنا من خطب ، وما نصب لنا من حرب ، وما هيّ لنا من نكاية وكيد » .

قال إبليس : « فأين الذين أرسلتهم إلى أقطار الأرض يحملون إليّ أخبارها ؟ » .

قال قائل خفيف لطيف فى صوت هامس كأنه هفيف النسيم :

« تكبرت ! ها نحن هؤلاء نُقبل عليك لا نحمل من الأنباء إلا ما يملأ قلوبنا هلعاً وجزعاً . لقد طردَ إخواننا من أجواف الأصنام ، وحيل بينهم وبين شهود الضحايا والقربان فى هذا الوجه الذى تعرفه من وجوه الأرض . ما يكاد أحد منهم يستقر فى جوف صنم من هذه الأصنام إلا أخذه العذاب من كل وجه ، وضاق به هذا المكان الذى كان يتسع له ، وأخذت عليه الطرق والمنافذ ، كأنما يدفع به إلى الموت دفعاً . فنا من كان ينفذ من أفواه الأصنام . ومنا من كان ينفذ من آذانها ، ومنا من كان ينفذ من أنوفها ، نجد فى ذلك أشد الجهد وأشق العناء » .

قال إبليس مغيظاً محنقاً : « ويلكم ! إنما أدرككم الجبن ، وأعياكم الجهد ، وعجزتم عن الاحتمال . إنما تفرون من عذاب إلى عذاب ، لن تلقوا عندى خيراً مما لقيتم هناك ! »

قال الشخص الماثل : « تكبرت ! ما جبنا ولا فشلنا ، ولكنا آثرنا أن نأتيك بالأنباء ، ونحن صائرون إلى ما تحب ، وعائدون

إن شئت إلى تلك الأصنام لنقيم فى غير مقام ، ونستقر فى غير مستقر ؛ فذلك أهون علينا وآثر عندنا من غضبك » .

قال إبليس : « فأين النساء ؟ » .

قال الشخص الماثل : « تكبرت ! كنّ أشجع منا نفوساً ، وأقدر منا على الاحتمال ، فآثرن البقاء فيما يكتنفهن من ضيق ، حتى يبلغهن أمرك ، أو يأتيهن الموت » .

قال إبليس : « ولم يخزكم ما رأيتم من صبرهن واحتمالهن ؟ ! » .

ثم سكت قليلا ، ثم قال : « بم يدعوك هذا الحى من قريش ؟ » .

قال الشخص الماثل : « يدعونى هبل » .

قال إبليس : « ويزعمون أنك أكبر آلهتهم ، فعدْ إلى مكانك مدحوراً مخذولا ، لأومرنّ عليكم النساء منذ الليلة ، ولأعقدنّ لواءكم للعزّى » .

ثم عاد إبليس إلى صمته ، وإن الظلمة لتضطرب من حوله اضطراباً شديداً ، كأنما جرى الخوف فى طبقاتها ، فبعث فيها رعدة غريبة تقشعر لها الأرض اقشعراراً . ثم قال إبليس بعد هنيهة : فأين الذين كلفتهم أن يحملوا إلىّ من تراب الأرض ؟ » .

قالت أصوات مختلطة : « ها نحن هؤلاء » .

ثم جعل كل واحد منهم يدنو فيرفع إلى وجه إبليس قبضة من تراب فيشمها ، ثم يشير إلى صاحبها أن ألقها فيفعل . حتى إذا دنا منه أحد هؤلاء الرسل وقرّب إلى أنفه قبضة التراب التى كانت فى يده ، لم يكد يشم ريحها حتى أخذه ذعر شديد ، فنهض قائماً وهو

يقول فى صوت المرتجف المغيظ : « هو ذاك ! هو هذا الوجه من بلاد العرب ، قد ألمّ به الحدث العظيم . هو هذا الحى من قريش ، قد فسد الأمر فيه علينا أشد الفساد » .

قالت الأصوات واجفة خائفة : « تكبّرت ! فماذا تأمرنا أن نفعل ؟ » .

قال : « سنرى » . ولكنه لم يكد ينطق بهذه الكلمة حتى صعق ، وصعقت الشياطين من حوله ، وانجابت الظلمة فى أيسر من لحظة ، وأشرقت الأرض بنور عظيم وصل بينها وبين السماء ، ولصق الشياطين بأديم الأرض كأنهم ذرّات من تراب ، وامتلأت أقطار الجو بصوت مهيب ، ولكنه عذب يقول : « ألا إن الكتاب قد بلغ أجله . ألا إن أحمد قد نبئ منذ الليلة » .

ثم ينقبض الضوء مرتفعاً إلى السماء ، ويتجرّد الليل القاتم من ثوبه المشرق ، ويعود الفضاء العريض كهيئته حين كانت تطبق عليه الظلمة الكثيفة . وتمضى لحظات قد هدأ فيها كل شىء ، وإذا صوت خفيف لطيف كهفيف النسيم يضطرب فى الجو قائلا : « ويلكم ! هبوا ! فقد آن للجن أن ينصرف عنكم ، وآن لقلوبكم أن تبرأ من الفرَق » .

وهذه الأصوات تنبعث من أديم الأرض كأن كل ذرّة من ذرات التراب قد استحالت إلى شخص يسمع ويبصر ويتحرك ويريد . وهذا إبليس قد اتخذ مكانه من أعوانه ورسله ، وهو يلقى إليهم الأمر ، ويبعث فيهم النشاط ، ويوكلهم بأقطار الأرض ، ويأخذهم بأن

يكونوا أشدّ حذراً ، وأكثر احتياطاً ، وأعظم إغواء للناس . ثم يتجه إلى جماعة منهم قائلا : « أما أنتم فاكفونى شر هؤلاء الأحبار من يهود ، وهؤلاء الرهبان من النصارى ؛ فقد أخذوا منذ حين يفقهون التوراة والإنجيل ، ويتحدّثون إلى عامة الناس بما لم يكونوا يتحدّثون به من قبل . فكفوهم عن ذلك ما وجدتم إلى كفهم سبيلا ، واحملوهم على أن ينكروا ما عرفوا ، ويجحدوا ما قالوا ، واملئوا قلوبهم زيغاً ، وعقولهم ضلالا » .

ثم يلتفت إلى جماعة أخرى قائلا : « وأما أنتم فارجعوا إلى حيث كنتم من هذا الوجه من العرب ، وليأخذ كل منكم مكانه فى جوف صنمه لا يفارقه حتى يأتيه أمرى » .

ثم يلتفت إلى سرب آخر قائلا : « وأما أنتم فبيتوا قريشاً من ليلتكم ، وليلزم كل واحد منكم رجلا منهم نائماً ويقظان ، ساكناً ومضطرباً فى الأرض . وإياى وأن يُفلت منكم أحد من قريش ! واعلموا أن من أفلت منه صاحبه فلن يجد عندى إلا عذاباً تعرفونه ، وما تحتاجون إلى أن أذكركم به أو أدلكم عليه » .

وقد أخذت الظلمة ترقّ ، وقد أخذ السحاب يتفرّق وينجاب ، وقد أخذت أشعّة النجوم تبلغ الأرض ، وقد أخذ ضوء القمر يترقرق فى الجو ، وقد خفت الصوت ، وسكنت الحركة ، واستقر كل شىء . ثم أصبحت قريش فغدت على أعمالها كأنها لم تنفق ليلة نادرة فى ليالى الدهر ، إلا خديجة بنت خوَيلد ! فقد أقبل عليها زوجها مرتاعاً سعيداً ، ينبئها بالنبأ العظيم .

قال ابن سعد : « أخبرنا علىّ بن محمد ، عن سعيد بن خالد وغيره ، عن صالح بن كيسان : أن خالد بن سعيد قال : رأيت فى المنام قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ظلمة غشيتْ مكة ، حتى ما أرى جبلا ولا سهلا ، ثم رأيت نوراً خرج من زمزم مثل ضوء المصباح ، كلما ارتفع عظم وسطع ، حتى ارتفع فأضاء لى أوّل ما أضاء البيت ، ثم عظم الضوء حتى ما بقى من سهل ولا جبل إلا وأنا أراه ، ثم سطع فى السماء ، ثم انحدر حتى أضاء لى نخل يثرب فيها البسر ، وسمعت قائلا يقول فى الضوء : سبحانه ! سبحانه ! تمت الكلمة ، وهلك ابن مارد بهضبة الحصى بين أذرُح والأكمة . سعدت هذه الأمة . جاء نبىّ الأميين ، وبلغ الكتابُ أجله . كذّبته هذه القرية ، تعذّب مرّتين ، تتوب فى الثالثة ، ثلاث بقيت ، ثنتان بالمشرق ، وواحدة بالمغرب . فقصها خالد بن سعيد على أخيه عمرو بن سعيد ، فقال : لقد رأيتُ عجباً . وإنى لأرى هذا أمراً يكون فى بنى عبد المطلب إذ رأيتُ النور خرج من زمزم » .

لاكلوزا

١٦ رجب ١٣٥٥ : سبتمبر ١٩٣٧